عبده دهب حسانين

«حاولت "مصر الفتاة" أن تستخدمنى للاتصال بالفاشست الإيطاليين فى مصر، وكلفتنى العمل لدى إيطاليين. لكن الإيطالى الذى عملت معه كان شيوعيا».

عبده دهب

كان الفتى الأسمر ابن وادى حلفا يغلى ثورية ضد الاحتلال. وكانت «مصر الفتاة» تطمح أن يمتد نشاطها إلى السودان. لكنها وصلت فقط إلى وادى حلفا، وفقط إلى الشاب عبده دهب. الفتى ارتدى القميص الأخضر وتجول به فى حوارى وادى حلفا مبشرا بالعداء للإنجليز وبنكهة فاشية. استدعاه الحاكم البريطانى لوادى حلفا، حاول استمالته فرفض، هدده فلم يرضخ. طلب منه فقط أن يخلع القميص الأخضر (الزى الخاص بالتنظيم شبه الفاشى لـ«مصر الفتاة») فأبى. فبدأ فى اضطهاده.. ولم يجد أمامه سوى أن يرحل شمالا إلى القاهرة، ويحكى فى حواره معى: «بعد أن غادرت وادى حلفا اتصلت فى القاهرة ببعض قادة مصر الفتاة وبعد فترة، ولأننى نوبى وأسعى للعمل، طلبوا منى أن أعمل لدى إيطاليين بهدف إيجاد علاقة مع الفاشست الإيطاليين فى مصر وكانوا كثيرين جدا». وفوراً يجد عبده دهب عملا فى حمام سباحة مملوك لأحد الإيطاليين. الفتى النوبى ينظف الحمام ويملؤه ويشتم الإنجليز فى كل خطوة وفى كل لحظة، ويظهر فى ذات الوقت تعاطفا مع إيطاليا محاولا أن يستدرج الإيطالى صاحب الحمام ليقيم بواسطته علاقة مع الفاشست، لكن صاحبه، كان ويا للمصادفة شيوعيا.

ويمضى عبده دهب فى حوار حميم فى جلسة مسترخية فى بيته بالخرطوم (١٩٦٩/١٠/١٩) متحدثا عن «ماريو» الإيطالى الذى سأله ذات يوم: لماذا أنت ضد الإنجليز بهذا الحماس؟ فقال: لأنهم يحتلوننا، فعاد ماريو ليسأل: ولماذا تحب إيطاليا؟ فأجاب لتخلصنا من الإنجليز. «وضحك ماريو وبدأ يتحدث معى عن مغزى ومحتوى

الاستعمار، ومزاحمة الدول الاستعمارية لبعضها البعض، وعن النظام الرأسمالى الذى يتولد منه الاستعمار. وإذا كان الإيطاليون يريدون طرد الإنجليز من مصر فهم يريدون أن يحلوا محلهم، وتدريجيا بدأ فى تدريس الماركسية لى. وتفتحت أمام عينى آفاق رحبة، وبدأ ماريو يحدثنى بانبهار عن الاتحاد السوفيتى وشاركته انبهاره». ويمضى الحوار: «وفى سنة ١٩٣٩ بدأت السلطات فى حملة اعتقالات طالت أغلب الإيطاليين خوفا من نشاط فاشى واسع وسطهم. وأتى البوليس إلى الحمام ليقبض على ماريو وفيما أودعه همس فى أذنى اتصل بـ«هنرى كورييل». ولم يقل لى من هو، ولا كيف أتصل به فقد أخذوه بعيدا».

ويسرح بصر عبده دهب بعيدا: «ذهب ماريو وتركنى وحيدا، الضوء الذى غمرنى به ظل يؤرقنى لكنه منحنى على الأقل رفضا للفاشية، فنظمت تمرداً داخل «مصر الفتاة» ضد التوجهات الفاشية، وتجمعت حولى مجموعة من الكوادر منهم: عصام عبد المعطى وفهمى عقل وحسن كمال، وأسسنا تنظيما مستقلا أسميناه: كتلة الشباب المصرى، وأصدرنا مجلة سميناها: الجلاء». وتولى عبده دهب قيادة المجموعة لكنه لا يكاد يعرف شيئا. فظل يبحث عن المعرفة، وأخذ يتجول هو وزملاؤه على المحاضرات التى كانت تملأ مناخ القاهرة فى أندية ثقافية متكاثرة. وبالمصادفة قادته قدماه إلى النادى الديمقراطى حيث مناظرة بين سلامة موسى وزكى مبارك حول «المرأة المصرية والمرأة الأوروبية»، وتفجر الفتى – المتفجر دوما – فى حوار حاد جدا مع د. زكى مبارك. وفيما يلملم أطراف جلبابه الأبيض همس شخص فى أذنه: أنت عبده دهب؟ فقال نعم، وأمسك به قائلا إحنا بندور عليك من زمان. وباختصار جلس معه كورييل جلسة طويلة اكتشف كل منهما فى الآخر كنزا. فالمعرفة والنظرية عند كورييل، أما عبده دهب فهو نوع من الرجال لا يتكرر كثيرا. يتفجر حيوية، قادر على العمل دوما، مخلص إخلاصا بلا حدود، قادر على أن يفعل أى شىء ويضحك عبده دهب قائلا: «يعنى زى ما بتقولوا فى مصر كنت بفوت فى الحديد، أى مهمة ممكن أن أنفذها فورا وعلى أحسن وجه». وعندما طلب منه كورييل أن يستأجر رخصة مجلة ذات اسم ملائم أتى فى اليوم التالى برخصة مجلة اسمها، ويا للدهشة، «حرية الشعوب» والإيجار جنيه ونصف الجنيه شهريا، زادت جنيها عندما بدأ البوليس مضايقاته. وجمعه كورييل مع نقابيين مخضرمين مثل سيد قنديل وزكى أبو الخير ثم ضم إليهم طالبا سودانيا هو محيى الدين صابر الذى أصبح فيما بعد مثقفا مرموقا. وصدرت «حرية

الشعوب» تحت شعار «مجلة مصرية سودانية عمالية ثقافية»، ويمضى فى حواره: «كان كوربيل يجلس معى على انفراد ليدرس لى المزيد من الماركسية وليستحثنى على ضم المزيد من الأعضاء وأنا لا أهدأ، وكنت كل يوم أضم عضوا جديدا على الأقل» وبسرعة أصبح عبده دهب عضوا فى اللجنة المركزية للحركة المصرية للتحرر الوطنى ويتأسس بعد ذلك القسم النوبى الذى ضم زكى مراد ومبارك عبده فضل ومحمد خليل قاسم وسيف صادق وعديدا من النوبيين، والقسم السودانى الذى ضم عشرات من الكوادر التى أسست بعد ذلك الحركة السودانية للتحرر الوطنى. وتعرف عبده دهب إلى شاب إثيوبى اسمه ملاس بوجوتى وضمه إلى مجموعته ثم سلمه لكوربيل الذى نظم له دورة تثقيف خاصة ليسافر بعدها إلى إثيوبيا فيؤسس تنظيما شيوعيا هناك.

وأقام عبده دهب علاقة وثيقة مع شاب تونسى لاجئ فى مصر ويسكن فى غرفة صغيرة فوق سطح منزل فقير فى الفوالة.. هو الحبيب بورقيبة، وقدم له مساعدات عديدة بتعليمات من «ح.م» وبعد ذلك أصدر عبده دهب مجلة «أم درمان» وقد تعثر إصدار الترخيص بسبب ممانعة الأمن لكن الرفيق أحمد دمرداش تونى توسط عند صهره محمد بك محمود جلال الذى أقنع رئيس الوزراء حسن باشا صبرى فاستدعى الباشا عبده دهب ودهش من فصاحته وحيويته ووافق قائلا: أنا واثق من أن اسم المجلة سيكون «موسكو» وليس «أم درمان». وفيما يجلس عبده دهب فى مقهى نوبى جلس إليه محمد حسن، وكان شماشرجيا بالقصر الملكى لكنه كان شخصية لامعة فى عالم السياسة. وقال له: إن مجلتك تقلق جلالة الملك لأنها ترفض شعار «نيل واحد ملك واحد» وتطالب بالكفاح المشترك وحق تقرير المصير، فإما أن تغلقها ولك منى ألفا جنيه (وهى ثروة هائلة بمعايير هذا الزمان) وإلا فإننى لا أضمن ألا يغتالوك وفوجئ رواد المقهى بعبده دهب ينهال ضربا على أشهر شخصية نوبية.. وهو يجرى وخلفه عبده دهب بشتائم وضربات بالشلوت. وبعدها أصدرت حكومة السودان (الإنجليزية) قرارا بمنع دخول «أم درمان» إلى السودان ثم جاء صدقى باشا ليغلقها عام ١٩٤٦. ويقبض على عبده دهب ويفرج عنه ليسهم فى إصدار «الجماهير» وليواصل عملا جماهيريا لا يهدأ ويقبض عليه عام ١٩٤٨ ليفرج عنه فى ١٩٥٠ ولكن إلى السودان ممنوعا من دخول مصر.

وتبقى ملاحظة أخيرة. نشرت حوارى مع عبده دهب فى كتابى «اليسار المصرى

١٩٢٥-١٩٤٠» وأشرت فى الهامش إلى أنه يبالغ فى دوره بعض الشىء، فغضب عبده دهب ولم أعرف كيف أصالحه. لكننى عندما قابلت هنرى كورييل فى باريس وجدته أكثر غضبا، وأكد لى أن ما قاله عبده دهب عن نفسه هو أقل كثيرا جدا مما فعل. وقال إنه كان شعلة متوهجة، وظلت متوهجة لا تهدأ مع إخلاص وانضباط وكفاءة فى كسب البشر. هو نموذج لا يتكرر.

ولا أجد سوى أن أعتذر لهذا الرجل الشجاع دوما، والمرح دوما والمتمسك بالمبدأ دوما.